﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

«لولا» امتناعية تمنع ﴿مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ في الدنيا، وعلّ الجواب بقرينة ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ...﴾ هو: لما أرسلنا رسولاً، وذلك مصيبة تصيب منكري الرسالات لو أن الدنيا دار جزاء، وأنهم لا يحتجون على الله ﴿فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا...﴾ ولكنهم محتجون لولا الإرسال رغم ما قدمت أيديهم من التكذيب على مدار الزمن الرسالي، فيُرسل الله رسلاً تترى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1] - ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾ هؤلاء المشركين وأهل الكتاب أجمعين ﴿ٱلْحَقُّ﴾ رسول الحق محمد ﷺ بالكتاب الحق في بُعدي الشرعة وآية الرسالة ﴿قَالُوا۟﴾ المشركون ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ محمد ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من كتاب وآية رسالية، فلا أن القرآن مثل التوراة، ولا معجزة القرآن كالآيات الرسالية لموسى.

= آل النبيين كفضل محمد على جميع المرسلين، وزيادة أخرى في جواب موسى بالنسبة لأمة محمد ﷺ: يا موسى لن تراهم وليس هذا أو أن ظهورهم ولكن سوف تراهم في الجنان جنات عدن والفردوس بحضرة محمد في نعيمها يتقلبون وفي خيراتها يتبججون أفتحب أن أسمعك كلامهم... وعبارة أخرى هي التلبيات بدلاً عما مضت: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك أن الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك، قال: فجعل الله ﷻ تلك الإجابة شعار الحاج...

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٩.

وهنا أجوبة ثلاثة حلاً ونقضاً وتحدياً أكتفي هنا بالثاني: ألم يكفروا ذلك الجيل المشرك بكل الرسالات ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ كما كفروا بما أوتيت يا محمد من بعد[١] إذ ﴿قَالُوا﴾ فيك وفي موسى على سواء ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾.

والحل ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٢] - ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[٣] وليست من لزامات آيات الرسالات المشابهة إلّا في التدليل على صدقها وهي دالة حيثما حلت، فالمشركون لم يكونوا صادقين في اعتذارهم، إذ كانوا مع أهل الكتاب في الجزيرة فلم يصدقوا بما أوتي موسى من قبل، فهنا الاعتذار باعتراض: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ مردود عليهم بنقض المثل ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا...﴾ فماذا تفيدهم المماثلة المقترَحة إلّا مماثلة الكفر، ولا يزيدون غير تخسير.

كما و﴿قَالُوا﴾ أهل الكتاب هوداً أو نصارى نفس القالة: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...﴾[٤]. ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ كفراً بإشراك حيث عبدوا العجل، وكفراً في مواضع عدة كقصة البقرة وأضرابها، وكفراً بالبشارات المحمدية المودوعة في التوراة ﴿قَالُوا﴾ هؤلاء الكفرة من أهل الكتاب لموسى وهارون، وللتوراة والقرآن ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ لا «ساحران»

---

(١) الواو في «أولم» عطف على محذوف هو الكفر بالرسالات السابقة والرسالة الأخيرة، فهم في ثالوث الكفر بالرسالة ما تشابه منها وسواها.
ثم ﴿مِن قَبْلُ﴾ كما تتعلق بـ ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا...﴾ [القَصَص: ٤٨] قصداً إلى المشركين زمن موسى، كذلك تتعلق بـ ﴿مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ [القَصَص: ٤٨] قصداً إلى الحاضرين، توحيداً بين الحاضرين والغابرين في ذلك الكفر المماثل.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

تعميقاً في فرية السحر كأن كلّ كيان الكتابين والرسولين سحر ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾!.

ومهما كان المعنيان معنيين من ﴿سِحْرَانِ﴾ ولكنما الأصل هنا هما الكتابان كما يشهد له ﴿أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ كجواب التحدي فيهما: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ بغير مَظهرهما كأنهما آية بينة، وأظهر القول هنا هو من المشركين، والكتابيون معنيون على هامشهم، فالنقض يشملهما جميعاً مهما اختلفت دركاتهما في كفرهما، وإلى جواب ثالث تحدياً أن يأتوا بمثل التوراة والقرآن:

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

وحين لا بد في الرسالات الإلهية من كتب الوحي ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾: التوراة والقرآن ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في فرية السحر، فأتوا من عند الله بغير سحر هو أهدى منهما اتبعه، وذلك تنازل في التحدي، فإنه من واجهة أخرى قبلها ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ... إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

وترى التوراة الحاضرة هي كتاب هدًى مطلقة حتى يُتحدى بها؟ علّ القصد هنا إلى التوراة الأصيلة، أم والحاضرة المهيمن عليها القرآن مخطِّئاً أخطاءها ومصوِّباً صوابها، ثم التحدي بهما جميعاً ولا أهدى منهما جميعاً ولا مثلاً لهما!، ثم الهدى في بُعد الدعوة الرسالية ماثلة في التوراة الأصلية مهما لم تكن في بُعد الحجة للداعية.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ ولن ﴿فَٱعْلَمْ﴾ ثباتاً على علمك بالوحي بمزيد علم من ذلك التحدي ﴿أَنَّمَا﴾ ليس إلّا ﴿يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ لا عقولهم

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

المتحللة عنها، غير المحجوبة بها، وذلك هو الضلال البعيد أن متبع الهوى يحاول أن تتبعه الهدى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ضلالاً ذا بعدين بعيدين عن الهدى: اتباع الهوى - بغير هدى من الله! فقد تُوافق الهوى الهدى أحياناً كما تخالفها أخرى، واما اتباع الهوى كأصل، ثم التخلف عن الهدى الأصل فهما أضل ضلال، وأظلم ظلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلا يهدي الهوى المتخلفة عن الهدى.

وكضابطة ثابتة كل ما لا يوافق كتاب الله وسنة رسول الله، أو تخالفهما من رأي، فهو هوًى ضالة، مهما أثبتته الأدلة العلمية والعقيلة أماهيه، فإما هدى تختص هي بوحي الله، وإما هوى تعم ثالوثها نفساً وعقلاً وعلماً، كما وأن رسول الهدى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1] [2].

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١﴾:

وإنه قول الوحي الهدى حيث تترى على مدار الزمن دونما انقطاع ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3] ﴿وَلَقَدْ﴾ تأكيد في بعدي الرسل والرسالات، وهما والكتابات، وهما والمعجزات ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ الحق المطلق ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ به ولمّا إلّا شذراً منهم قليلاً وأكثرهم كافرون.

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٣٢ في أصول الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن عليه السلام في الآية قال: يعني من اتخذ دينه رأيه بغير إمام من أئمة الهدى.
وعن علي بن إبراهيم بسند متصل عن سدير قال قال أبو جعفر عليه السلام: يا سدير أفأريك الصادين عن دين الله ثم نظر إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري في ذلك الزمان وهم حلق في المسجد فقال: هؤلاء الصادون عن دين الله بلا هدى من الله ولا كتاب مبين، إن هؤلاء الأخابث لو جلسوا في بيوتهم فجال الناس فلم يجدوا أحداً يخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله صلى الله عليه وآله حتى يأتونا فنخبرهم عن الله تبارك وعن رسوله صلى الله عليه وآله..

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٤٨.

فهؤلاء المشركون الناكرون لوحي القرآن دونما أية حجة إلّا لجة غامرة من الهوى، غير عامرة بالهدى، ثم أولاء أهل الكتاب وكأنهم لم يؤتوا الكتاب، وأما:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

أترى ضميري الغائب في «قبله - به» راجعان - فقط - إلى القرآن، لأنه هنا كان محلَّ النقض والإبرام كما ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ...﴾؟ والحق في ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ هو الرسول الحق برسالة حقة في القرآن: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ هذا الحق الرسالي ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ...﴾! أم هما راجعان إلى رسول القرآن؟ و﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا تعني إلّا القرآن! الوجهان هما المعنيان، والرسول يُتلى عليهم كما القرآن، بل وهو أيضاً قرآن: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[1]، وحتى إذا لا تناسبه أن يتلى، فهذه قرينة أنه القرآن، وتلك ﴿...ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾[2] إنه نبي القرآن، فهما - إذاً - معنيَّان، فهما واحد مع أنهما اثنان.

فـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ رسولاً وقرآناً ﴿هُم بِهِۦ﴾ قرآناً ورسولاً ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وطبعاً ليسوا هؤلاء كلّ الذين أوتوا الكتاب، بل هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[3] [4]،

(١) سورة يس، الآية: ٦٩.
(٢) سورة يونس، الآية: ٧٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢١.
(٤) الدر المنثور ٥: ١٣١ - أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي رفاعة قال: خرج عشرة رهط من أهل الكتاب منهم أبو رفاعة إلى النبي ﷺ فآمنوا فأوذوا فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [القَصَص: ٥٢] وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية كنا نحدث أنها أنزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق يأخذون بها وينتهون إليها حتى بعث الله محمداً ﷺ وصبرهم على ذلك وذكر لنا أن منهم سلمان وعبد الله بن سلام. =

أجل أولئك الأكارم يؤمنون به قرآناً ونبيه، لا فحسب بل و﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۘ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾(١) ﴿. . . ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(٢) (٣) وقد نص عليه في التوراة كما في النص العبراني التالي «يِدعُوا ييسرائِل إوايِل حَنْبِيا مَشُوكَاعْ إيشْ هَارُوحَ عَلْ رُوبْ عَوُنِخَا ورِباهْ مَشِطْمَاهْ»:

بنو إسرائيل يعلمون ويعرفون أن النبي الأمي المصروع صاحب روح الهامي وصاحب الوحي»! و«المصروع» هنا تعريض عليهم حيث ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٥٢﴾(٤)!.

﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ٥٣﴾:

﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ القرآن - أو - ونبي القرآن عرضاً عليهم ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا

= وفيه (١٣٣) أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال: نزلت في عبد الله بن سلام لما اسلم أحب أن يخبر النبي ﷺ بعظمته في اليهود ومنزلته فيهم وقد ستر بينه وبينهم ستراً فكلمهم ودعاهم فأبوا فقال: أخبروني عن عبد الله بن سلام كيف هو فيكم؟ قالوا: ذاك سيدنا وأعلمنا، قال: أرأيتم إن آمن بي وصدقني أتؤمنون بي وتصدقوني؟ قالوا: لا يفعل ذاك هو أفقه فينا من أن يدع دينه ويتبعك! قال ﷺ: أرأيتم إن فعل؟ قالوا: لا يفعل! قال: أرأيتم إن فعل؟ قالوا: إذاً نفعل، قال: اخرج يا عبد الله بن سلام فخرج فقال ﷺ: أولم تثنوا عليه آنفاً؟ قالوا: إنا استحينا أن تقول اغتبتم صاحبكم من خلفه فجعلوا يشتمونه فقام إليه أمين بن يامين فقال: أشهد أن عبد الله بن سلام صادق فابسط يدك فبايعه فأنزل الله فيهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ. . .﴾ [القصص: ٥٢] وعن سعيد بن جبير نزلت في سبعين من القسيسين فبعثهم النجاشي فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾ [يس: ١-٢] حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا ونزلت فيهم هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [القَصَص: ٥٢].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

(٣) الدر المنثور ٥: ١٣١ - أخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر عن علي بن رفاعة قال: كان أبي من الذين آمنوا بالنبي ﷺ من أهل الكتاب وكانوا عشرة فلما جاؤوا جعل الناس يستهزئون بهم يضحكون منهم فأنزل الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ. . .﴾ [القَصَص: ٥٤].

(٤) سورة القلم، الآيتان: ٥١، ٥٢.

﴿بِهِۦ﴾ نبياً بكتابه، وإن اختصت التلاوة بالقرآن، فحين يتلى عليهم يقولون آمنا به: تالياً ومتلواً عليهم، حيث القرآن برهان أن من جاء به رسول من عند اللَّه ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ الآن ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ المطلق ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ بل ليس فحسب الإيمان الآن فـ ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ لما بُشِّرنا في كتاباتنا السماوية بالقرآن ونبيه، وكنا ناظرين ظهور ذلك الحق المبين، فـ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

مرة أولى من الأجر الموعود بما آمنوا بكتابهم وبنبيه، وأخرى أن آمنوا بما يتلى عليهم من القرآن ونبيه[1] أو الأولى بما آمنوا به من قبل، وأخرى لمّا يتلى عليهم، أم الأولى بإيمانهم في المرحلتين، ثم ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾[2] في المرحلتين من الإيمان، ﴿صَبَرُواْ﴾ على عقبات الإيمان وعقوباته من ضفة اللّاإيمان، لا فحسب إنهم صبروا على الأذى بل واستعلوا على الكبرياء النفسية: ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾: يدفعون أو يرفعون «بـ» الطريقة «الحسنة» وبنفس الحسنة ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وكما أمروا ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الإيمان، ودرء السيئة بالحسنة دفعاً عن الإيمان وقبيله وعن أنفسهم، بمال وقوة في الروح أو الجسم.

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٣٣، أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأول والكتاب الآخر ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده وفيه أخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: من أسلم من أهل الكتاب فله أجره مرتين.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٣١ - أخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر عن علي بن رفاعة قال: كان أبي من الذين آمنوا بالنبي ﷺ من أهل الكتاب وكانوا عشرة فلما جاؤوا جعل الناس يستهزئون بهم ويضحكون منهم فأنزل الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ...﴾ [القصص: ٥٤].

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.

وقد تعني الحسنة والسيئَة الحياة، فبالحياة الحسنة وهي الإيمانية الصابرة المثابرة، يدفعون الحياة السيئَة المتكاثرة المكابرة، والتقية في مجالاتها الصالحة من الحسنة والإذاعة في غير صالحها سيئَة[١]: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[٢].

ثم الدرءُ قد يكون دفعاً ولمّا تُصِبه السيئَة وهي مشرفة، أم رفعاً كما التوبة الرافعة للمعصية، وكذلك ترك كبائر السيئات وفعل كبائر الحسنات، وعلى أية حال فسنة الحياة الإيمانية المليئَة بالشبكات والشوكات والحرمانات هي - حتى المقدرة - أن تدرأ السيئَة بالحسنة، فقد تكون الحسنة هي التقية وأخرى هي الجهاد والمقاتلة كلٌّ في سبيل الحفاظ على صالح الإيمان والمؤمنين، فالحياة التي تفني في سبيل القضاء على الكفر هي من الحسنة التي تدرأ بها السيئَة، كما وكل ما ينفق من مال وحال ومنال وعقل وعلم في سبيل درءِ السيئات هي من الحسنة، «فلا تكونن ممن يقول في شيءٍ أنه في شيءٍ خاص» ما وسعت الدلالة لمداليل واسعة شاسعة.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

أولئك الأكارم من أهل الكتاب، المؤمنون بالقرآن ونبيه هم صابرون في إيمانهم صامدون، ومن تصبُّرهم في الله ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ حين انتقلوا من كتابهم إلى القرآن، سمعوا من أهل ملتهم السابقين ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾

(١) نور الثقلين ٤: ١٢٣ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤] على التقية، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [القصص: ٥٤] قال: الحسنة التقية والسيئة الإذاعة.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٢.

والإعراض عن اللغو هو عدم التأثّر به، والإجابة عنه، وهو من شيم المؤمنين الصادقين ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾[١] ولم يقولوا لغواً جواباً عن لغو بل ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ فلماذا اللغو إذاً، فكما لا نُسمعكم لغواً إذ لم تؤمنوا فلا تُسمعونا لغواً إذ آمنآ، وليس منها إلّا ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ في لفظة القال وواقع الحال والأعمال ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[٢]! ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ اللاغين بلغوا القول وزخرفه رغم ما يبغون علينا هؤلاء المجاهيل، وهذا من درءِ السيئة بالحسنة، ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ إلّا أن ننصحهم ونهديهم إلى صراط مستقيم.

وهذه مفاصلة حسنة بينهم وبين اللاغين، إعراضاً عن المقابلة بالمثل أولاً، وجدالاً بالتي هي أحسن ثانياً، وسلام عليهم إعلاماً أنهم ليسوا لهم إلّا سلامة ثالثاً، ثم متاركة معهم أخيراً: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أن نكالمهم أو نجالسهم إذا هم مصرون على الجهالة[٣].

ويا له من أدب بارع يقابلون به السوء الهارع، إذ هم يحتاجون إلى مزيد من صامد الإيمان، فلا يهتاجون أمام اللغو من قولة للإيمان، وإنما هو

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٢.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.
(٣) روى محمد بن إسحاق في السيرة «ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة فلما فرغوا من مساءلة النبي ﷺ عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال؟ ما نعلم ركباً أحمق منكم! فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليهم لما نأل أنفسنا خيراً».

الترفع والسماحة وحب الخير حتى للمسيئين، مهما اقتضى الخير استئصالهم إذا كانوا مفسدين.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

إن رسول الهدى كان يحب أن يهدي الضالين كلهم أو جلّهم فيضيق صدراً بما يرى من صمودهم على الضلال قلقاً، ويحاول ليل نهار أن يحصل على عدد أكثر ممن يهتدي إلى الله، فنزلت هذه وأضرابها مسلية خاطره الـقـلـق ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾(١) - ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ...﴾(٢) و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هداه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدى التوفيق إلى صراط مستقيم بدلالتك الرسالية الوافية، فلا بد لواقع الهدى من ضم الهديين، هدي منك تدليلاً إلى شرعتك، وهدي من الله توفيقاً لتقبلها والإقبال إليها، وليس يوفق الله عبداً إلّا أن يريد هو الهدى فاهتدى بما تحرّى ووفقه الله ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾(٣).

وقد يروى عن رسول الهدى قوله في واقع الضلالة والهدى: «بعثت داعياً ومبلغاً وليس إلي من الهدى شيءٌ وخلق إبليس مزيناً وليس إليه من الضلالة شيء»(٤)، وهو ﷺ لا يعني من السلب إلّا التدليل في الهداية أو التضليل، ولا من الإيجاب إلّا واقعهما في حقل التخيير وليس التسيير.

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٨. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.
(٣) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٤) الدر المنثور ٥: ١٣٤ - أخرج العقيلي وابن عدي وابن مردويه والديلمي وابن عساكر وابن النجار عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: . . .
وفي نور الثقلين ٤: ١٣٤ في أصول الكافي محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن ابن فضال عن علي بن عقبة عن أبيه قال قال أبو عبد الله عليه السلام: اجعلوا أمركم هذا لله ولا تجعلوه للناس فأما ما كان لله فهو لله وما كان للناس فلا يصعد إلى السماء ولا تخاصموا بدينكم الناس فإن المخاصمة ممرضة للقلب إن الله عز وجل قال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] وقال: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ =